ملاحظات أولية حول مصادر التاريخ الموريتاني الوسيط

النانى ولد الحسين
قسم التاريخ

لعل أهم عقبة يمكن أن تعترض كتابة تاريخ موريتانيا خلال العصر الوسيط هي ندرة المصادر، إذ أن غياب لغة مكتوبة في البلاد قبل انتشار الإسلام فيها وافتقار الدول التي تعاقبت عليها خلال هذه المرحلة من التاريخ إلى تنظيم إداري مماثل لما كان لدى مثيلاتها من التنظيمات السياسية الإسلامية المعاصرة لها، يستخدم الكتبة لتدوين الدواوين وتوثيق المراسلات وغيرها من الأعمال الرسمية، قد أدى إلى حرمان مؤرخيها وباحثيها من وضع اليد على مصادر معاصرة للأحداث التي يريدون الكتابة عنها، فضلا عن ندرة النقود والنقوش والآثار التي تعود إلى تلك الحقبة من التاريخ وعدم دراسة وفك رموز ما هو متوفر منها واقتصار ما قيم به من بحث أثري على عينتين من موقعين أثريين فقط من مجموع المواقع المتناثرة في مساحة البلاد الشاسعة.

إلا أننا قد نتفاجأ إذا علمنا أن ظاهرة ندرة المصادر المعاصرة للأحداث لا تخص موريتانيا وحدها، وإنما تعاني منها بلدان مختلفة هي في نظر الباحثين مظنة لوفرة المصادر وتعدد أصنافها وتنوع مضامينها بحيث تغطي اهتمامات كتابها مختلف أوجه الحياة للبلد الذي يكتبون عنه لتوفر تلك البلدان على الشروط الضرورية لحصول ذلك التراكم الوثائقي ، حيث كانت شعوبها تعيش حياة مستقرة في المدن والقرى وتمتلك لغات مكتوبة منذ أمد بعيد وتتوفر على أنظمة إدارية تتبع أسلوب التوثيق، إلا أن الأحداث الرئيسية في تاريخها قد دونت بعد وقوعها بفترة طويلة نسبيا، وأبرز مثال على ذلك هو أن تدوين السنة وأحداث السيرة النبوية الشريفة التي يستمد منها المسلمون منهاج حياتهم وتفسر لهم ما هو مجمل في الكتاب، لم يتم بشكل عملي إلا في القرن 2هـ بعدما تنبه بعض حكام وعلماء الأمة إلى الخطر الذي يتهددها بسبب اختلاف الروايات حول الحدث أو المسألة الواحدة فبادروها وضبطوها بعد تخليص رواياتها من الاضطراب وميزوا فيها بين الصحيح والضعيف والموضوع اعتمادا على روايات كبار التابعين الذين أدركوا الصحابة ونقلوا عنهم الأثر والخبر[1].

[1] محمد باقشيش أبو مالك: جمع ودراسة وتخريج كتاب المغازي لموسى بن عقبة، نشر جامعة ابن زهر بأكادير، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1994، ص. 9.

وينطبق الأمر ذاته على المصادر المكتوبة لتاريخ المغرب الكبير خلال المرحلة الأولى من العصر الوسيط حيث أدت ندرة تلك المعاصرة منها للأحداث بالباحثين في هذا الحقل إلى الاعتماد على كتابات دونها أصحابها في الغالب بعد قرون من وقوع الأحداث التي يكتبون عنها، معتمدين في ما كتبوه على مصادر لم تعد موجودة استقى مؤلفوها بدورهم معلوماتهم شفويا من رواة وقصاصين[1].

ولا شك أن مضمون الرواية الشفوية كان يتغير على مر الأزمنة وباختلاف الرواة، إذ أن المحافظة على ضبط الرواية الشفوية عند انتقالها من شخص إلى آخر ومن بيئة اجتماعية إلى أخرى أمر صعب، كما أن تأثير الأمزجة والميول الشخصية والخلفية القبلية على الروايات الشفوية يكون عادة كبيرا، مما يؤدي إلى وضع مسحات أسطورية على سير بعض الأحداث التاريخية، وقد يتم العكس عندما يقوم البعض بتدوين بعض الأساطير التي لا تستند إلى أساس واقعي وتتداولها المصنفات فتترسخ في أذهان الناس على أساس أنها حقائق لا يرقى إليها الشك[2]، ولا تسلم الندرة المتوفرة من مصادر هذه المنطقة من آفات الغموض وتناقض الروايات، فتلقي دراستها والتعامل معها على كاهل الباحث عبئا ثقيلا عندما يضطر إلى المقارنة فيما بين مختلف الروايات الواردة فيها ونقدها للوصول إلى الأخبار التاريخية وإجلاء الغموض الذي يلف بعض تلك الكتابات[3].

ويعاني تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء بشكل صارخ من ندرة المصادر المكتوبة، بل إن وضع مصادر تاريخ البلدان المحاذية منها لموريتانيا أفضل من تلك الأكثر توغلا نحو الجنوب لاستفادتها من المصادر العربية الوسيطة التي لم يكن بمقدور كتابها أو من يزودونهم بالأخبار من دعاة وتجار عرب وبربر التوغل كثيرا جنوب الصحراء بسبب موانع بعضها مرتبط بالبيئة في بلاد السودان وانعكاساتها على أوضاعهم الصحية وبعضها لأسباب اجتماعية وثقافية مرتبطة باختلاف العادات وعدم القدرة على التواصل اللغوي، فاضطر المتخصصون في تاريخ هذا الجزء من إفريقيا إلى الاعتماد على ما توفر من آثار بما في ذلك تلك التي تعود إلى الفترة الحديثة واستحداث منهجية للتعامل مع الروايات الشفوية المتداولة والتي يتعلق بعضها بأحداث

---

[1] د. سعد زغلول عبد الحميد:تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1979ج1، ص. 16.

[2] نفس المرجع، ص ص 15 - 16.

[3] د. رشيد الناضوري وآخرون: تاريخ المغرب الكبير، 3ج، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981، ج1، ص. 9.

تعود إلى عدة قرون من أجل كتابة تاريخ تلك البلدان الواقعة في هذا الجزء من القارة السمراء[1].

ولا يعني ما تقدم من توصيف لندرة مصادر تاريخ البلاد خلال الفترة الوسيطة وما تبع ذلك من مقارنات بما عليه حال جوارها الجغرافي ومحيطها الحضاري في هذا الشأن، أن مصادر تاريخها خلال تلك الحقبة من الزمن معدومة تماما، وإنما القصد من وراء ذلك هو التنبيه إلى أن تلك المصادر ليست على قدر الوفرة والتنوع المتاحين لمناطق أخرى من العالم عرفت تقاليد الكتابة والتوثيق منذ عصور قديمة وتواصلت فيها تلك التقاليد عبر تاريخها الطويل فوفرت لمؤرخيها مادة وثائقية على قدر كبير من الأهمية.

ويمكن التمييز بين ثلاثة أصناف من مصادر التاريخ الموريتاني الوسيط نجملها فيما يلي:

1 ـ المصادر العربية الوسيطة

ونعني بها الكتابات التي صدرت عن مؤلفين عرب ومسلمين عاينوا أو عاصروا الأحداث التي دونوها أو استقوها من أشخاص سافروا إلى مواطن تلك الأحداث وعايشوا سكان البلاد أثناء إقامتهم بها لممارسة التجارة أو للدعوة إلى الإسلام أو نقلوها من مصادر سابقة لهم لم تعد موجودة في عصرنا الحاضر الخ...

وعلى الرغم من أن هذه المصادر تمد الباحثين بمعلومات هامة عن جل المناطق الموريتانية خلال الفترة ما بين منتصف القرن 2هـ/8م ونهاية القرن9هـ/15م، فإن توزيع تلك المعلومات في الزمان والمكان غير متوازن، كما أن اهتمام كتابها لم يكن يشمل مختلف أوجه حياة سكان البلاد، وإنما كان يقتصر في الغالب ـ وفي أحسن الأحوال ـ على سرد أسماء القبائل التي تعمر المنطقة في عهدهم، والأساس الاقتصادي الذي تعتمد عليه حياتها، وما يراه أولئك الكتاب غريبا يستحق الذكر من عاداتها في إطار اهتمام معظمهم الملحوظ بالعجائب، ذلك الاهتمام الذي كثيرا ما كان يخرج بهم عن أسلوب الكتابة الجادة، فينجرفون إلى أسلوب يستهدف التسلية بالدرجة الأولى ويكثرون من سرد أساطير قد تكون تلبي رغبة عدد كبير من القراء خلال تلك الفترات وتجتذب ألباب العامة منهم بصفة خاصة فيقبلون على قراءة وتداول

---

[1] يراجع مثلا كلا من:

ـ د. أحمد الشكري: الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن 18م (نموذج بلاد السودان)، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 2010، ص ص. 84 – 106، ويراجع كذلك:

- Joseph KI – ZERBO: Histoire de l'Afrique noire, HATIER, Paris, 1972, pp. 17 – 18.

المصنفات التي تحتويها مما يحقق الشهرة لكتابها، ولعل طبيعة وسائل المواصلات التي لم تكن تسمح في تلك العصور للإنسان ببناء تصور واقعي أو قريب من الواقع حول المناطق والمجتمعات البعيدة عنه جغرافيا وحضاريا كانت من بين أهم العوامل التي ساعدت على رواج تلك الأساطير، لذلك كانت ذهنيات معظم القراء مهيأة لتقبل كل ما يكتب أو يحكى عن تلك المجتمعات وبلدانها من غرائب وخوارق لعدم قدرتهم على التحقق من صحتها، فيتناقلها الكتاب وتلوكها ألسنة الرواة جيلا بعد جيل حتى تصبح من المسلمات، وهذا ما يدعو المعتمدين على هذا النوع من المصادر إلى توخي الحذر وعدم التسليم بالمعلومات الواردة فيها قبل فحصها ونقدها[1].

وتطرح تلك المصادر لمستغليها مشكلا منهجيا آخر يتمثل في التكرار من مؤلف إلى آخر وبدون عزو - إلا عند النوادر منهم-، وهذا التكرار لا يقتصر على نقل نفس الشهادات حول حدث محدد أو ظاهرة معينة من طرف مؤلفين تفصل بين الفترات التي دونوا خلالها مصنفاتهم عدة قرون، وإنما يحدث أن يتم تكرار نفس الجمل بمعانيها وألفاظها وتراكيبها، بل إن غالبية أصحاب هذا الصنف من المصادر يكتبون بضمير المتكلم ما نقلوه من مصادر سابقة لعهدهم كان مؤلفوها قد عاصروا الأحداث التي دونوها أو نقلوها عن مصدر شفوي معاصر لها، ثم إنهم لا يصرحون باعتمادهم عليها فينقلون نصوصا منها بما تتضمنه من عبارات مثل "قال لي فلان" أو "سمعت أو رأيت" الخ[2] مما ينفي عنها صفة التواتر على الخبر التي تفيد صحته حسب التقاليد المعرفية السائدة عصرئذ، ومع ذلك فإنه لا يمكننا وصف أولئك الكتاب

---

[1] J. DEVISSE, Le dossier des sources écrites, in **TEGDAOUST I**, Recherches sur Awdaghost, A.M.G, Paris, 1970, p. 17.

[2] من بين الأمثلة على ذلك وهي كثيرة الرواية التي أوردها أبو عبيد البكري والمتعلقة بنساء صنهاجة في مدينة أودغست، وأسندها إلى محمد بن يوسف الوراق بقوله: "قال محمد بن يوسف أخبرني أبو بكر أحمد بن خلوف الفاسي شيخ من أهل الحج والخير، قال أخبرني أبو رستم النفوسي وكان من تجار أودغست أنه رأى منهن امرأة ..."، ثم جاء صحب الاستبصار بعد البكري بما يزيد على قرن فنقل عنه الرواية من دون أن يصرح بذلك، فكتب يقول: "أخبرني ثقة من التجار أنه رأى بمدينة أودغست امرأة..."، وجاء محمد بن عبد المنعم الحميري بعد صاحب الاستبصار بقرنين (القرن 14م) فنقل نفس الرواية من دون أن يعزوها إلى أحد قائلا: "وأخبرني من رأى امرأة منهن بمدينة أودغست ..." يراجع:

- أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، المطبعة الحكومية، الجزائر، 1857، ص. 158

- مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية)، بغداد، 1986، ص. 216

- محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق د. إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ص.64.

بأنهم فرطوا في الأمانة العلمية، لأن مفهوم المعرفة عند علماء ذلك العصر كان قائما على نقل ما مفيد - في نظرهم - مما خلفه القدماء ثم تطويره والإضافة إليه إذا أمكن ذلك، لأن حرص المؤلفين العرب المعروف خلال الفترة الوسيطة على التصريح بالمصادر التي ينقلون عنها إبعادا للشبهة عنهم في حالة عدم صحة الخبر لا يتنافى مع صمت بعضهم عن ذكرها في كل مرة ينقل فيها أخبارا هامة، إذ كان بعضهم يكتفي مثلا في مقدمة كتابه باستعراض أهم الكتب التي اعتمد عليها، أو يذكرون عنوان أو اسم كاتب المصدر مرة واحدة في أول استغلال له ثم يتركون للقارئ مهمة تمييز أسلوب الكاتب عن أساليب غيره، في حين كان بعض المؤلفين يعتقدون أن تكرار التصريح بمصادرهم يثير الملل في نفوس القراء ويحط من منزلتهم عندهم فيتهمونهم بأنهم عالة على غيرهم في ما يكتبون[1].

ومهما يكن من أمر فإن هذا التكرار يسمح للباحث بالاستدلال فيما يتعلق بالقضايا التي تتكرر في المصادر العربية الوسيطة بأي واحد من بينها شاءه، وخاصة فيما يعني الأنساب وحملات الفتح العربي الإسلامي للبلاد والمراحل الأولى لقيام دولة المرابطين في موريتانيا وغير ذلك من المواضيع التي لا يتسع المقام لحصرها.

ومع ذلك فإن سمة النقل الغالبة على الإخباريين لم تكن تشمل كافة المؤلفين العرب والمسلمين خلال تلك الفترة، فهنالك من الرحالة والجغرافيين المسلمين مجموعة لم يتوقف أفرادها عند نقل ما وفره لهم الأقدمون عن العصور الغابرة، لكنهم بذلوا جهودا جبارة من أجل الإطلاع بشكل مباشر على أحوال المناطق والمجتمعات المعاصرة لهم في موريتانيا والجزء المجاور لها من بلاد السودان أيضا، على ما في السفر إلى المناطق البعيدة خلال تلك العصور من مخاطر ومتاعب، فدونوا معلومات أصيلة حصلوا عليها عن طريق الملاحظة المباشرة أثناء تنقلاتهم، أو استقوها من ثقات من سكان المناطق المعنية أو من التجار أو الدعاة المترددين عليها، ونذكر من بين

---

[1] د. فرانتز روزنتال: مناهج علماء المسلمين في البحث العلمي، ترجمة د. انيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، 1961، ص ص 119 – 121.

هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر اليعقوبي[1] و ابن حوقل[2] والبكري[3] وابن بطوطة[4] والحسن بن محمد الوزان[5].

ومن بين أولئك المؤلفين من نقل عن نصوص هامة لم تعد متداولة في عصرنا، تهم مراحل أساسية من تاريخ المنطقة، فاحتفظوا لنا بأهم ما ورد فيها، وإن كنا نأمل في أن العثور عليها أو على بعضها سيضيف معلومات تجيب على بعض الأسئلة التي مازالت مطروحة حول تاريخ موريتانيا خلال العصر الوسيط، ومن بين تلك النصوص مثلا كتاب المسالك والممالك لمحمد بن يوسف الوراق(ت.973م)[6] وكتاب "الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية لابن الصيرفي(ت.557هـ/1162م) الذي كان موجودا في المكتبة التونسية حتى سنة 1823م إلا أنه أصبح اليوم في عداد المصادر المفقودة[7]، و من بين المصادر التي احتفظت لنا بمقتطفات من تلك النصوص مع أنها لم تعاصر أصحابها ولا الأحداث التي أوردتها: ابن عبد الحكم[8] والمسعودي[9]

---

[1] احمد بن أبي يعقوب بن واضح: كتاب البلدان، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، 1957، ص 111.

[2] أبو القاسم بن حوقل النصيبي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة بيروت، 1979، ص ص، 99 – 105.

[3] أبوعبيد البكري: مصدر سبق ذكره، ص ص 156 - 183.

[4] ابن بطوطة (أبوعبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي): رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، د. ت. ص ص 673 - 678.

[5] الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: د. محمد حجي ود. محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1983، ص. 54 وما بعدها.

[6] جغرافي ومؤرخ قيرواني من أهل القرن 3هـ/10م، وصل إلى الأندلس قادما من القيروان سنة 961م فاستقر بقرطبة إلى أنتوفي سنة 974م بعد أن ألف للحكم الثاني مجموعة من الكتب تخص جغرافية وتاريخ المغرب الإسلامي، لقبه معاصروه بمحمد التاريخي، وقد ضاعت مؤلفاته ولم يصلنا منها إلا مقتطفات في ثنايا كتب ابن حيان وابن حزم وابن عذارى، ومنها تلك التي ضمنها أبو عبيد البكري كتابه "المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب" وتتعلق بالطرق التجارية التي كانت تخترق البلاد الموريتانية طولا وعرضا متجهة من شمال إفريقيا إلى بلاد السودان الغربي (غرب إفريقيا) أو العكس، بالإضافة إلى معلومات حول سكان مملكة أودغست وظروفهم الاقتصادية وبعض مظاهر حياتهم الاجتماعية والاقتصادية في عهد ملكهم تنيروتان بن اسفيشر اللمتوني.
راجع: البكري، مصدر سبق ذكره، ص. 158. وأغناطيوس يوليانويتش كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص. 298. وعبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق، 1984، ص. 290، وكذلك:

J. DEVISSE, **TEGDAOUST I**, op.cit, p. 110.

[7] محمد المختار ولد السعد: "عوائق البحث في التاريخ الموريتاني"، مجلة الوسيط، المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، 1988، العدد 2، ص ص. 28 - 43

[8] عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم: فتوح إفريقية والأندلس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964، ص. 58.

[9] أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي:

والبكري[1] والإدريسي[2] وياقوت الحموي[3] وابن عذارى المراكشي[4] وابن أبي زرع[5] وابن الأثير[6] وابن خلكان[7] والنويري[8] وابن خلدون[9] الخ...

ويمكن أن نصنف المصادر العربية الوسيطة لتاريخ موريتانيا – من خلال مواطن كتابها- إلى مصنفات مشرقية وأخرى مغربية، فالأولى كتابها بعيدون عن الواقع الذي كانوا يكتبون عنه، بحيث لم يكن يصلهم عنه إلا النزر اليسير من المعلومات التي كانوا يحصلون عليها في أغلب الأحيان عن طريق التجار الذين لم يكونوا يرون أثناء رحلاتهم ذهابا وإيابا إلا المناطق الواقعة على طول الطرق التي كانوا يسلكونها ولا يعرفون شيئا عما كان موجودا على جنباتها فضلا عما يجري في الجهات البعيدة عنها، ولم يكن معظمهم يستقر في المناطق المعنية مدة تسمح له بالتعرف على شعوبها ومعرفة أوضاعها، فتبقى شهاداتهم حول تلك المناطق وشعوبها في مستوى الانطباع ولا ترقى إلى مستوى المعرفة، وحتى أولئك الكتاب المشارقة الذين سافروا بأنفسهم إلى المناطق الجنوبية من المغرب أو وصلت بهم رحلاتهم إلى الصحراء وبلاد السودان فإن خلفيتهم المشرقية ظلت تقيدهم وتحد من قيمة ملاحظاتهم حول

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، 2ج، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط5، دار الفكر، بيروت، 1973.

- أخبار الزمان وما أبداه الحدثان وعجائب البلدان والعامر بالماء والعمران، طه، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1980، ص ص. 88 – 89.

[1] نقل عن الوراق واستفاد من وثائق قرطبة، للمزيد يراجع: الأدب الجغرافي العربي، مرجع سبق ذكره، ص. 298.

[2] أبو عبد الله محمد بن عبدالله الحمودي الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، الجزء الخاص بالقارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، تحقيق وتقديم وتعليق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص ص. 86 - 89.

[3] ياقوت الحموي: معجم البلدان، 3مجلدات، دار صادر، بيروت، د. ت. ج1، ص. 277.

[4] ابن عذارى المراكشي:البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،4ج، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج1، ص. 28 و ج4، ص ص. 7 - 27.

[5] علي بن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص ص. 119 - 138.

[6] أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير: الكامل في التاريخ، 9ج، دار الفكر، بيروت، 1978، ج8، ص ص. 75 - 76.

[7] أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان:وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ج، تحقيق إحسان عباس،دار الثقافة، بيروت، 1971، ج8،ص. 129.

[8] أحمد بن عبد الوهاب المعروف بالنويري: نهاية الأرب في فنون الأدب (القسم الخاص بتاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط)، تحقيق وتعليق د. مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1984، ص ص. 375 - 386.

[9] عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدئ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 6 مجلدات، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1968، ص ص. 370 – 377، وص ص. 406 – 408.

المجتمعات في تلك المناطق، فقياسها على المجتمعات المشرقية والكتابة عنها انطلاقا من رؤية مشرقية يضفي الغموض على الكثير من كتاباتهم، وينطبق الأمر نفسه على أولئك الذين من بينهم نقلوا عن مصادر مغربية مكتوبة موثوق بها، لأنهم في الحالات التي يسعون فيها إلى شرح بعض الظواهر الواردة في تلك المصادر عن المجتمعات المذكورة أو للتعليق عليها لا يتخلصون - إلا في النادر - من النظرة المركزية المشرقية، فالمجتمعات المشرقية المسلمة كانت في أذهانهم تمثل النموذج الأمثل الذي ينبغي أن يقاس عليه تطور أو تخلف عادات وأخلاقيات الشعوب الأخرى.

وتبقى المصادر المغربية لتاريخ موريتانيا في هذه الحقبة من الزمن هي المهيأة لأن تكون أكثر قربا من المحيط الثقافي والحضاري لسكان موريتانيا خلال العصر الوسيط، لأن كتابها كانوا أكثر قدرة - في نظرنا - على فهم واقع أولئك السكان بحكم الجوار الجغرافي والانتماء إلى نفس الفضاء الاجتماعي - الثقافي، لكن المشكلة التي يطرحها هذا النوع من المصادر العربية الوسيطة لتاريخ موريتانيا مزدوجة فكتابات الجغرافيين من بينها تعاني من الإيجاز النسبي للمعلومات الواردة فيها حول أوضاع البلاد خلال الفترات السابقة للقرن 5هـ/11م، بينما تثير كتب الإخباريين استغراب بعض الباحثين لما تتوفر عليه من معلومات مفصلة تتعلق بالمراحل المبكرة من الفتح العربي الإسلامي للمغرب الكبير بما فيه موريتانيا على الرغم من أن المصادر المعاصرة لتلك الأحداث أو تلك التي كتبت بعيد وقوعها لم تتضمن تلك التفاصيل[1]، ولا ندري كيف غاب عن أذهان هؤلاء أن الثقافة العربية الإسلامية ظلت لفترات طويلة تعتمد على الرواية بدلا من التدوين، فأيام العرب وأشعارهم وأمثالهم في الجاهلية وصلتنا عن طريق الرواية ولم يتم تدوينها إلا في عهد الدولة الإسلامية، بل إن القرآن الكريم ظل فترة من الزمن محفوظا في صدور الرجال فقط قبل تدوينه بعد وفاة الرسول الأكرم وكذلك السنة النبوية، ولا شك أن قلة المتعلمين في الجاهلية وفي بداية ظهور الإسلام وغياب تقاليد فن التأليف في المجتمع العربي آنذاك[2] وندرة الأوراق وكثافة المعلومات من بين العوامل التي نعتقد أنها فرضت على المؤلفين الأوائل انتقاء

---

[1] شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس الجزائر المغرب الأقصى)،2ج، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة،ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ج1، ص. 14.

[2] هذا هو الرأي السائد بين المختصين من ينبه إلى أن الروايات الشفوية العربية مأخوذة عن كتب مدونة سواء تعلق الأمر بما قبل الإسلام أو بالقرون الاولى بعد ظهوره، يراجع حول هذا الموضوع: فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي (التدوين التاريخي)، نقله إلى العربية د. محمود فهمي حجازي، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1993، المجلد الأول، ج2، ص ص. 3 – 28.

واختصار ما كانوا يدونونه بينما ظلت التفاصيل تجري على ألسنة الرواة جيلا بعد جيل إلى أن تغيرت الظروف لصالح التدوين فتضمنتها مؤلفات المتأخرين، ثم إنه من الجائز أن يكون هؤلاء قد اعتمدوا على ورقات أو كتب لم يذكروها وأتلفها الزمن قبل أن تصل إلينا معلومات عنها.

وبصفة عامة، فإن الباحث في تاريخ موريتانيا بصفة خاصة وتاريخ إفريقيا بصفة عامة لا يمكنه - على الرغم من كل تلك النواقص والمشاكل الاستغناء عن المصادر العربية الوسيطة التي تشكل في الغالب الأثر الوحيد المكتوب عن تاريخ هذه القارة خلال حقب تاريخية تشمل قرونا عديدة، فهي الملاذ الأساسي الذي يوفر له المادة الأولية، وإن كان من اللازم عليه قبل استغلالها أن يجعل النصوص الواردة فيها في سياقها الثقافي، وأن تلازم قراءاته لها واستثماره لمضامينها روحا نقدية لتمييز الخيال فيها عن الواقع، ومحاولة تقطيع النص الواحد إلى عدة نصوص لمعرفة ما يخص عصر كاتبه من المعلومات التي أوردها، وما يتعلق منها بالتراث القديم سواء منه الإغريقي أو الفارسي أو العربي، وكذلك معرفة ما تتضمنه من كتابات المؤلفين المسلمين السابقين لعصره[1].

هذه الطريقة هي التي يتمكن الباحثون بواسطتها، مع الاستعانة ببعض الدراسات التي أجريت حول أولئك المؤلفين ومصنفاتهم، من تغطية الفترة التي تهمنا، والتي لم تعد الكتابات المعاصرة لأحداثها متوفرة، فلم يبق منها إلا الاستشهادات والنتف المتناثرة في ثنايا كتب المتأخرين عنها، الذين يتفاوتون من حيث حرص كل واحد منهم على العزو إلى الأقدمين بأسمائهم أو عناوين كتبهم، و يقتصرون فقط على الاقتباس منهم دونما أدنى إشارة إلى المصدر المقتبس منه، هكذا إذن نجد مقتطفات من كتب مؤلفي الجيل الأول من الكتاب العرب والمسلمين حول المغرب الإسلامي بما فيه موريتانيا وبلاد السودان، مثل الاستشهادات التي احتفظ لنا بها كل من ابن قتيبه المتوفي سنة294هـ / 889م في كتابه المعارف والمسعودي في مؤلفه أخبار الزمان، من كتاب وهب بن منبه المتوفى قبل سنة 110هـ/728م، كما تضمن كتاب المسعودي "مروج الذهب" مقتطفات تهم موريتانيا وما يجاورها من بلاد السودان اقتبسها من كتاب الجغرافي العربي المشهور الفزاري المتوفى قبل سنة 173هـ/790م[2]، وينسحب ذلك علي العديد من المؤلفين الذين لم تعد مؤلفاتهم متداولة، وهذا هو ما يفسر وجود معلومات تتعلق بأحداث القرون الأولى من انتشار الإسلام في المغرب في كتابات مؤلفي القرون المتأخرة، مثل المعلومات المتعلقة بحملات

---

[1] J. DEVISSE, Le dossier, op.cit, p. 15.

[2] Joseph CUOQ: Recueil des sources arabes concernant l'Afrique Occidentale du VIIIe au XVIe siècle, BILAD ALSUDAN, Editions du CNRS, Paris, 1975, P. 42.

عقبة بن نافع وحفيده حبيب بن أبي عبيدة وحملات المشترى بن الأسود التي ذكرت بعض تلك المصادر أن جيوشه وصلت أثناءها إلى موريتانيا الحالية وبلاد السودان خلال فترة مبكرة من الفتح الإسلامي للمغرب[1]، وغير ذلك من المعلومات المرتبطة بعلاقات موريتانيا التجارية والثقافية والسياسية بشمال إفريقيا، فضلا عن وصف أحوال المجتمعات والسلط السياسية بها خلال تلك الفترة المتقدمة من العصر الوسيط.

وينطبق ذلك على كتابات العديد من المؤلفين نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر كلا من ابن عذارى المراكشي وابن أبي زرع وابن خلدون وغيرهم من الإخباريين الذين تفاوتت اهتماماتهم ما بين كتابة تاريخ البشرية منذ الخليقة إلى عهد المؤلف وكتابة تاريخ العالم الإسلامي أو منطقة محددة منه، وفي كل الحالات فإن الاستطرادات التي تستهدف التعرف على العلاقات التي كانت تربط المناطق التي تهم كاتبا أو آخر بالمناطق المجاورة لها وإن لم تكن تعد حتى عهده ضمن دار الإسلام تدعوه إلى الحديث عنها.

ونضيف إلى العوامل التي دعت المؤلفين العرب والمسلمين إلى تجشم مصاعب الكتابة عن مناطق بعيدة عنهم، رغبة معظمهم القوية في التعرف على كافة شعوب وبلدان المعمورة من أجل المساهمة في تأدية الواجب الديني عن طريق مد أولي الأمر والدعاة بالمعلومات المتعلقة بها، فمن المعروف أن الإسلام رسالة موجهة إلى الإنسان مهما كان وأينما كان وفي كل زمان، وأن على كل مسلم أن يساهم من موقعه في نشر هذه الرسالة.

وقد ساهمت هيمنة الدولة العربية الإسلامية على التجارة الدولية ابتداء من القرن2هـ/8م في تحمس بعض المؤلفين وتجنيد بعضهم الآخر لجمع المعلومات حول الثروات الأساسية وقتها وتوزيعها في العالم ومعرفة الطرق والمسالك المؤدية إليها وطبيعة الشعوب التي تمتلكها ونوعية البضائع التي تحتاجها تلك الشعوب والمصاعب التي تحول دون الوصول إلى بلدانها، فظهر لون من الكتابة الجغرافية عرف بكتب "المسالك والممالك"، وقد حظيت موريتانيا في هذا الصنف من الكتابات باهتمام كبير من لدن المؤلفين والرحالة العرب والمسلمين، باعتبارها المنطقة المتحكمة في مناجم الملح والممر الإجباري إلى مناطق إنتاج الذهب الأكثر شهرة والأغزر إنتاجا في العالم خلال ذلك العصر، بالإضافة إلى ما كانت تحتويه من الثروات الأخرى المختلفة والهامة، وقد وصل هذا اللون من الكتابة إلى أوج تطوره - حسب

---

[1] ابن عبد الحكم، مصدر سبق ذكره، ص. 58؛ البكري، مصدر سبق ذكره، ص.163 وص. 179؛ ابن عذارى المراكشي، مصدر سبق ذكره، ص. ج1، ص. 28؛ ابن أبي زرع مصدر سبق ذكره، ص. 121؛ ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، ج6، ص. 217؛ وأبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، دار صادر، بيروت، 1303 هـ، ص. 64. وص. 81.

رأينا - مع أبي عبيد البكري في الجزء الذي وصلنا من كتابه المسالك والممالك والذي عنونه بـ "المغرب في ذكر أخبار إفريقية والمغرب"، فهذا الكتاب يعتبر أهم مصدر لتاريخ موريتانيا وغرب إفريقيا خلال القرنين 4 - 5هـ/10 - 11م[1].

ومن الملاحظ أن اهتمام الكتاب العرب بالمنطقة قد تناقص بعد قيام الدولة المرابطية في المغرب والأندلس، بحيث وجهوه إلى متابعة أحداثها المتتالية هنالك، وأصبحت المساحة المخصصة من كتاباتهم لموريتانيا وجوارها من بلاد السودان ضيقة بل إنها ضاقت أكثر بعد وفاة أبي بكر بن عمر عام 480هـ، حيث اجتذبت الانتصارات التي حققها الشطر الشمالي لهذه الدولة بقيادة يوسف بن تاشفين في المغرب والأندلس اهتمام أولئك الكتاب، مما شجع المؤرخين في إطار بحثهم عن بديل آخر عن صمت هذا الصنف من المصادر عن المنطقة واقتصاره على الحديث عن المبادلات التجارية وما يرتبط بها من مراحل الطرق العابرة للصحراء، إلى محاولة جمع الروايات الشفوية المدونة خلال فترة لاحقة للأحداث وغربلتها والاستعانة بها من أجل إضاءة جزء من الفترة المظلمة من تاريخ هذه البلاد وهي الفترة الممتدة ما بين بداية القرن 6هـ/12م ونهاية القرن 9هـ/16م، وهذه الروايات المحلية تمثل المصادر الأساسية لتلك المرحلة من التاريخ الموريتاني.

2 - المصادر المحلية الموريتانية – السودانية

لم يتوصل الباحثون حتى الآن - حسب علمنا – إلي وثائق مكتوبة من طرف أحد الكتاب المحليين الموريتانيين أومن المناطق السودانية المحاذية لهم من الجنوب تعود إلى الفترة الوسيطة، وقد يكون مرد ذلك هو ببساطة عدم وجود لغة مكتوبة متداولة بين سكان المنطقة خلال تلك المرحلة من التاريخ، فاللغات السودانية لم تكتب إلا بعد قرون من دخول الإسلام إلى غرب إفريقيا، حيث تم استخدام الحرف العربي لذلك الغرض، أما في موريتانيا فإن الكتابات المحفورة في واجهات الجبال وداخل الكهوف، - والتي من شبه المؤكد أنها شكل من أشكال كتابة التيفناغ الليبية – البربرية، – ما زالت مستعصية على الفهم، إذ لم يتمكن الباحثون حتى الآن من تفكيك رموزها وقراءتها، مع أنه من المعتقد بأن مضامينها لن تضيف الكثير إلى معارفنا حول تاريخ البلاد عموما بسبب محدودية انتشارها بين السكان في ذلك العصر والقلة النسبية لما توفره

[1] من المعروف أن القرن 4هـ/10م سابق لعهد هذا المؤلف، وقد اعتمد في ما كتبه عن أحداثه على كتابات محمد بن يوسف الوراق ومكتبات وأرشيف قرطبة، ومن بين المواضيع التي اعتمد فيها على مصادر سابقة للقرن 5هـ مثلا ما أورده عن الجيش الذي بعثته الدولة الأموية في صدر الإسلام لفتح غانة وقيام عبد الرحمن بن حبيب بحفر جملة من الآبار على طول الطريق بين تامدلت وأودغست، و بعض المعلومات المتعلقة بتاريخ مملكتي أودغست وغانة قبل القرن 5هـ/11م. راجع: البكري، مصدر سبق ذكره، ص.157، وص. 163، وص. 179.

من نصوص وشواهد بسبب اقتصار مدونيها على النقش على الصخور بدلا من استخدام المواد التي كانت شائعة مثل الجلود والورق، وقد يكون مرد ذلك أن الكتابة لم تكن شائعة بين أفراد مجتمع بدوي متنقل تنتشر فيه الأمية، يعيش حياة بسيطة ويسعى معظم أفراده وراء قطعان الماشية وليست لديه مشاغل فكرية وعلمية تتطلب وجود نخبة واسعة بحاجة إلى توفير مستلزماتها في هذا الميدان عن طريق امتلاك تقنية صناعة الورق أو استجلابه، لذلك فإن ما هو متوفر من هذه النصوص قليل لقلة الجبال في المنقطة، ومقتضب لصعوبة النقش وضيق الحيز المتاح من واجهات الجبال الصالحة لذلك، ويلاحظ وجود غالبيتها على طول الطرق التي كانت تربط البلاد مع شمال إفريقيا مما يعطي الانطباع بأن تجارا من تلك المناطق قد يكونون هم المسؤولون عن تدوينها وليس السكان المحليون، مع أن الاعتقاد السائد بين المهتمين يرجح أن يكون ما هو موجود منها يهم فترات سابقة للعصر الوسيط.

وعلى الرغم من أن البلاد الموريتانية دخلت في علاقات تجارية نشطة مع العرب الفاتحين منذ بداية استقرارهم في شمال إفريقيا[1] ومع ما ترتب عن تلك العلاقات من وجود لجاليات كبيرة منهم في مدنها التجارية، ودخول بعض سكانها في الإسلام على يد أفراد من التجار والدعاة المنتمين إلى تلك الجاليات، فإن ذلك لم يؤد إلى انتشار تقليد الكتابة عن تاريخ البلاد ووصف أحوالها بين السكان المحليين الذين أسلموا وقتئذ على قلتهم النسبية، ولا حتى بين صفوف الجاليات العربية المستقرة هنالك خلال تلك الفترة ، لأن المصادر العربية لتاريخ المنطقة التي سبق أن تعرفنا بشكل إجمالي على سماتها الأساسية لا يوجد من بينها أثر واحد مكتوب من طرف واحد من الأهالي أو من طرف واحد من أفراد الجاليات العربية الإسلامية المقيمة خلال تلك الفترة في البلاد الموريتانية أو ما يجاورها من بلاد السودان، باستثناء أسئلة فقهية وجهها بعض التجار المقيمين في أودغست وبعض سكان البلاد إلى فقهاء كبار في القيروان والأندلس ولا ندري ما إذا كانت قد وجهت أصلا مكتوبة أو شفوية وتولى الفقهاء صياغتها قبل ردودهم عليها، وهي ردود تتضمن معلومات مفيدة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في موريتانيا خلال الفترة مابين القرن 4هـ/10م والقرن6هـ/12م[2]، ولا تتضمن المصادر العربية الوسيطة المتوفرة لنا الإحالة إلى كتاب مفقود لكاتب موريتاني وسيط، أو حتى

---

[1] ابن خلدون، العبر، مصدر سبق ذكره، المجلد6، ص. 412.

[2] أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، 11ج، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981.يراجع مثلا ج5، ابتداء من ص. 116 و ص. 137 وج9، ابتداء من ص. 542.

لأحد التجار المقيمين في البلاد خلال ذلك العصر وإن كان بعضهم وفر معلومات شفوية لكتاب مشهورين في المغرب والأندلس[1] أو في المشرق أثناء رحلاتهم التجارية إلى تلك المناطق أو أثناء زياراتهم لعائلاتهم هنالك بعد إقامة طويلة في مدن موريتانيا أو في بلاد السودان أو خلال أسفارهم لتأدية فريضة الحج[2].

ويعتقد أن هذه الوضعية تغيرت بعد قيام حركة المرابطين في موريتانيا خلال النصف الأول من القرن 5هـ/11م، إذ من المعروف أن هدف تلك الحركة الأساسي كان يتمثل في نشر الإسلام بين الأهالي، وتعميق الوعي الديني في نفوسهم وإلزامهم بإتباع الشريعة الإسلامية بعد أن كان إسلام معظمهم شكليا، والقضاء على الوثنية في غرب إفريقيا ثم التمكين للمذهب السني المالكي في المغرب الإسلامي، وبغض النظر عن مستوى تحقيق المرابطين لتلك الأهداف (جزئيا أو كليا) فإن تأثيرهم في المنطقة قد ساهم في انتشار الكتابة بين الأهالي، حيث أن دخول أغلبية سكان غرب إفريقيا في الإسلام وانتقال سكان موريتانيا من الاعتناق الشكلي له إلى ممارسة شعائره بشكل فعلي والتزامهم بأخلاقياته، بل والتحمس لنشره وفق مبادئه الصحيحة،

---

[1] من بين من صرح البكري بأنهم وفروا له معلومات شفوية عن الصحراء وبلاد السودان: أبو عبد الله المكي (البكري، ص.178) والفقيه أبو محمد عبد الملك بن نخاس الغرفة (البكري، ص. 180) بينما تجاهل ذكر أسماء مصادره الشفوية في الحالات التي يكون فيها تواتر حول رواية معينة ويكتفي بقوله: "حدث به جماعة من المسلمين الثقات" (البكري، ص. 177) ثم إنه في بعض الحالات لا يحيل إطلاقا إلى مخبريه، لكن يفهم من السياق أنه تلقى معلوماته من مصادر شفوية مثل حديثه عن المراحل الأولى لقيام دولة المرابطين في الصحراء وكان معاصرا لها، قال في أواخر ما كتبه عنها "وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة أبو بكر بن عمر" (البكري، ص. 170) وقال في حديثه عن ملوك غانة "واسم ملكهم اليوم وهي سنة ستين وأربعمائة تنكا منين" (البكري، ص. 174) ، فمن المرجح أنه تلقى هذه المعلومات التي دونها خلال السنة التي أنهى فيها تأليف كتابه من أفواه تجار كانوا يترددون بين الأندلس والصحراء وبلاد السودان، فالأحداث تتعلق بالسنة ذاتها وهو أول من دونها وكافة من كتبوا عنها يحيلون إليه، أما ابن خلدون، فقد صرح باعتماده في بعض ما كتب عن غانة التي توجد أطلال عاصمتها في الجنوب الشرقي الموريتاني على روايات أحد أعيان المنطقة هو الشيخ عثمان الذي وصفه بأنه "فقيه أهل غانة وكبيرهم علما ودينا وشهرة" وذكر أنه جاء إلى مصر عام 799هـ في طريقه إلى الحج رفقة أهله وولده، فلقيه بها وأخذ عنه معلومات عن غانة وبلاد السودان، كما استقى معلومات شفوية من شخص سماه الحاج يونس ووصفه بترجمان التكرور ونقل أخرى عن أبي عبد الله بن خديجة الكومي الذي التقى بالمنسا موسى أثناء عودته من الحج. (العبر، المجلد6، ص.ص. 413 – 415.)

[2] زود يحيى بن إبراهيم الكدالي أثناء عودته من الحج مثلا أبا عمران الفاسي ووكاك بن زلو اللمطي بمعلومات عن سكان الصحراء تناقلتها المصادر فيما بعد، ومن المرجح أن سلفه أبو عبد الله محمد بن تفاوت فعل الشيء نفسه مع فقهاء آخرين، وكذلك غيرهما من حجاج البلاد، يراجع: البكري، مصدر سبق ذكره، ص ص. 164 – 166، وابن عذارى المراكشي، ج4، مصدر سبق ذكره، ص ص. 7 – 8، وابن أبي زرع، مصدر سبق ذكره، ص. 122 - 128، وإسماعيل بن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص. 27، الخ...

تتطلب منهم جميعا التعرف على ما هو مطلوب من الفرد أولا في علاقته اليومية مع ربه وعلاقته مع الآخرين، وبالتالي العودة إلى القرآن والسنة ومختلف الكتب التي تفسرهما وتساعد المسلم على القيام بواجباته، وهو ما يستدعي منه تعلم اللغة العربية، التي هي لغة القرآن، وهي في الوقت ذاته تفتح أمام سكان موريتانيا وغرب إفريقيا(السودان الغربي) مجالات واسعة خلال ذلك العهد، بما توفره من دعم لعلاقاتهم التجارية مع مختلف أرجاء العالم الإسلامي، فضلا عما تقدمه هذه اللغة من خدمات كانت غائبة عن حياتهم مثل توثيق معاملاتهم وتسهيل التواصل فيما بينهم، أو مع الآخرين (المراسلات) الخ...

وعلى الرغم من هذه المسوغات، فإننا لم نسمع بوجود وثائق مكتوبة في موريتانيا أو في المناطق الصحراوية والسودانية المحيطة بها تعود إلى الفترة السابقة للقرن 9هـ/16م، ومع ذلك فإن هذا لا ينفي وجودها أصلا، فلقد احتفظت لنا المصادر مثلا بعناوين مؤلفات عديدة لأبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي الذي استقر في أزوكي بعد وصوله إلى موريتانيا صحبة الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني قادمين من أغمات بالمغرب، لكننا لا نعرف من تلك المؤلفات اليوم إلا كتابين أحدهما كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة المنشور مؤخرا في كل من الدار البيضاء وبيروت[1]، وكتابه الآخر في أصول الفقه الذي مازال مخطوطا وهو كتاب "تنبيه الأنام"، في الوقت الذي تعتبر فيه كتبه الأخرى مفقودة، وإذا كان ذلك هو مصير إنتاج شخصية مثل الحضرمي ذات شهرة كبيرة في العالم الإسلامي، وهو كذلك شخص حضري استقر منذ قدومه إلى موريتانيا وحتى وفاته بها في منطقة عرفت الحياة الحضرية منذ فترة قديمة واستمرت فيها الحياة القروية حتى أيامنا هذه، فما بالنا بإنتاج الأفراد الآخرين الأقل أهمية والذين كانوا يسكنون البوادي ويعيشون حياة قوامها الترحال بحثا عن الماء والكلأ، وكانت المكتبات التي يمتلكونها تحفظ في ظروف سيئة ومعرضة للتلف خلال كل عملية تنقل.

ولعل الطريقة التي مازال البدو في موريتانيا يتبعونها حتى الآن في تعاملهم مع مكتباتهم التي تضم الكثير من المخطوطات الهامة كفيلة بإعطائنا تصورا عما كان متبعا من طرف أسلافهم في هذا المجال خاصة أن نمط الحياة المتبع من طرف الفريقين متشابه إن لم يكن متطابقا، فخلال فصل الصيف وعندما تشح المراعي وتجف معظم نقاط المياه يضطر سكان الصحراء إلى التنقل بحثا عن الماء والكلأ لحيواناتهم التي تشكل أساس الثروة

[1] أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي القيرواني: كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة، ط1، دراسة وتحقيق رضوان السيد، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1981.

عندهم، ولأنهم لا يكادون يحطون أمتعتهم في مكان حتى تستنزف حيواناتهم الكثيرة مراعيه الشحيحة أصلا فإنهم ينتقلون إلى مكان آخر، وكانوا يعمدون عند انطلاق موسم تنقلاتهم إلى التخلي عن كل الأمتعة التي لا يجدون الوقت للاستمتاع بها أو الاستفادة منها خلال ذلك الظرف الصعب، ومن بينها بالطبع الكتب التي لم يكونوا يجدون القدر الكافي من الوقت لمطالعتها خلال ذلك الموسم لانشغالهم بالحيوانات، وبالتالي كانوا يجعلون مكتباتهم في صناديق غير مقفلة أو في أوعية من الجلود ويدفنوها تحت الأرض في مكان محدد أو يجعلونها داخل كهوف أو فوق أغصان الأشجار، وقد تحدث تساقطات مطرية قبل عودتهم فتصاب الكتب بالبلل وتتلف، كما أن الحيوانات البرية قد تتلف الصناديق أو الأوعية التي تحفظ فيها تلك المكتبات، فتتعرض الكتب لعواصف الصحراء الهوجاء وتتطاير أوراقها في مهب الريح، وقد يضل أصحابها طريق العودة إلى المواقع التي خبأوا فيها مكتباتهم.

ونضيف إلى العوامل التي لم تكن تشجع على بقاء الكتب لفترات طويلة في هذا الوسط البدوي الصحراوي ندرة الورق المجلوب إلى المنطقة وكذلك ندرة وجود نساخين متفرغين لهذه المهنة، فعندما تتعرض أوراق الكتب للتآكل، فإن مصيرها هو الطريقة المعهودة حتى أيامنا هذه في موريتانيا والمتمثلة في الدفن تقديسا لها، فالمحافظة على الكتاب ممزق الأوراق هو في نظر السكان إهانة لحروف اللغة العربية وكلماتها التي قد تبتر، فهي اللغة التي نزل بها القرآن وكتب بأحرفها، والأفضل في هذه الحالة - في نظرهم - التخلص من الكتاب وفق الطريقة ذاتها التي يتم بواسطتها التخلص من جثة الإنسان بعد وفاته !!!

وفضلا عن هذه الظروف التي كانت سائدة في المنطقة، والتي لم تكن تسمح بحفظ الوثائق المكتوبة وتداولها خلال فترة طويلة بين عدة أجيال، فإن بعض الباحثين يضيفون عاملا آخر لا يقل أهمية، يعتقدون أنه قد ساهم هو الآخر في عدم وجود تراكم للوثائق المكتوبة يماثل ما حصل في المناطق الإسلامية الأخرى في هذا الجزء من المغرب الإسلامي، ويتمثل في أن تحول ثقل الدولة المرابطية إلى الشمال (المغرب والأندلس) قد أدى إلى إفراغ الصحراء من خيرة المتعلمين والمنتجين من أبنائها[1]، حيث هاجروا إلى الشمال بحثا عن الامتيازات وانتقالا إلى أماكن الكثافة السكانية، التي تكون للشهرة والتميز فيها مردودية أكبر، وحيث تتوفر للمتعلم أيضا فرصة تجديد معارفه وتطويرها في وسط حضري يتمتع بإمكانيات اقتصادية مقبولة،

[1] ددود بن عبد الله، الحركة الفكرية في بلاد شنقيط خلال القرنين الحادي والثاني عشر (17-18م)، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، السنة الجامعية 1992-1993م، ص 42

بخلاف الوسط البدوي الصحراوي الذي يتنافس فيه التطلع إلى إنتاج الضروري من الغذاء من أجل البقاء مع الرغبة في التحصيل والإنتاج المعرفيين، وكثيرا ما كان التنافس يحسم لصالح الخيار الأول ويتم الاكتفاء بمعرفة الضروريات.

وقد ساهم عدم وجود دولة مركزية قوية تمتلك إرادة الترسيخ لبقائها عن طريق توثيق المراحل التي مرت بها وتشجيع المؤلفين على تدوين أمجادها خلال المرحلة الأخيرة من العصر الوسيط في البلاد، في ندرة المصادر المحلية المكتوبة حول هذه المرحلة من تاريخها التي أضحت بسبب ذلك معروفة في عرف المهتمين بالفترة المظلمة، وقد أضاف بعض الباحثين عاملا آخر يفسر تأخر ظهور ثقافة التدوين لدى الموريتانيين حتى القرن 18م برسوخ الثقافة الشفاهية بين مجتمع البيضان[1]، على أن هنالك من بينهم من يرى أن من أبرز سمات التاريخ الإسلامي، مواكبة مجموعات من الرواة والنسابين لتطوراته ومراحله في مختلف أصقاع البلاد الإسلامية، وأنهم كانوا يحدثون بما يعرفون عن أحداث تلك المراحل وأنساب أبطالها وأن رواياتهم تبقى متداولة إلى أن يأتي من يرى الأهمية في تدوينها[2]، بل إن البعض عمم هذه المرحلة من مراحل المعرفة على كل الحضارات بما في ذلك الحضارة اليونانية التي اشتهرت بكونها حضارة فكر وتدوين وأورد في هذا السياق ما نسب إلى سقراط من أنه قال بأنه " يكره أن يرى أفكاره تدون على جلود البقر الميتة عوضا أن تطبع على قلوب الناس الأحياء"[3].

وعلى كل حال فإن عملية تدوين تاريخ المنطقة التي تهمنا في هذا المقام عرفت تطورا ملموسا مع ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في الصنغاي خلال القرن 9هـ/16م على يد مجموعة من الأسر العلمية ذات الأصول الموريتانية كان أسلافها قد هاجروا إلى بلاد السودان لنشر الإسلام والمعارف الشرعية بين صفوف سكانها، أو لأسباب اقتصادية وسياسية، فتوفرت لأفراد تلك الأسر من العلماء ظروف مشجعة من أهمها الحياة المستقرة في المدن والقرى وساهموا في إرساء تقاليد علمية دفعت بالحركة الثقافية في المدرسة الإسلامية السودانية بالصنغاي في عهد الأساكي أشواطا كبيرة أضحت بموجبها تنافس مثيلاتها في كبريات الحواضر الإسلامية، وينتمي معظم تلك العائلات إلى قبيلة مسوفة التي كانت تعمر الجزء الشرقي من بلاد شنقيط بما

---

[1] د. أحمد الشكري، مرجع سبق ذكره، ص ص. 264 – 265.

[2] شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون (دراسة في تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله في الإسلام)، 2ج، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1978، ج1، ص. 93.

[3] مناهج علماء المسلمين في البحث العلمي، مرجع سبق ذكره، ص. 22.

في ذلك تنبكتو والمناطق المحيطة بها[1]، ومن أبرز هذه العائلات: آل أندغمحمد الذين رحل جدهم أندغمحمد من ولاتة إلى تنبكتو[2] وآل محمد أقيت الذين انتقل أسلافهم من ولاتة إلى تنبكتو في عهد انفصال الطوارق عن إمبراطورية مالي واتخاذهم لتنبكتو عاصمة لدولتهم في القرن 15م، وقد عاد معظم أفراد هذه العائلات إلى ولاتة بعد سيطرة سني علي على تنبكتو ومحنة الفقهاء بها على يده ابتداء من عام 873هـ، وظلوا فيها حتى توفي ذلك الملك، بل إن كثيرا منهم فضل عدم العودة إلى تنبكتو، وقد أوضح السعدي أن مصدر عمارة تنبكتو بالعلماء والتجار والأموال هو "بلد بير" أي ولاته، فقال: "وكان التسوق قبل في بلد بير وإليه يرد الرفاق من كل الآفاق وسكن فيه الأخيار من العلماء والصالحين وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلد (...) ثم انتقل الجميع إلى تنبكت قليل قليلا حتى استكملوا فيه وزيادة مع جميع قبائل الصنهاجة بأجناسها فكانت عمارة تنبكت خراب بير، ولم أتته (هكذا) العمارة إلا من الغرب[3] لا في الديانات ولا في المعاملات"[4]، ويتضح من خلال بيعة أهل تنبكتو للمنصور الذهبي أن الموريتانيين كانوا يمثلون جالية كبيرة بها، إذ خصص لهم القائمون على البيعة يوما كاملا لأداء القسم على ولائهم له، وقد عبر السعدي عن ذلك بقوله: "ثم حلف الولاتيون والودانيون ومن جانسهم في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من المحرم فاتح العام اثنين وألف"[5]، هذا فضلا عن أعداد كبيرة من العلماء الذين وصلوا فرادى إلى تنبكتو قادمين من مختلف المناطق الموريتانية واندمجوا في المجتمع السوداني مثل الفقيه الحاج جد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج الذي تولى القضاء في تنبكتو في أواخر فترة حكم مالي لها، وكذلك أخوه الفقيه إبراهيم وأيد القاسم الولاتي ومحمد نض وعثمان بن الحاج بن الحسن التيشيتي وسنتاغو بن الهادي الوداني الخ...[6]

---

[1] ابن حوقل، ص. 98، ابن بطوطة، ص.675–678، وص. 684، وعبد الرحمن السعدي: تاريخ السودان، نشر هوداس وتلميذه دي لافوس، باريس، 1981، ص. 151.

[2] الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق وتعليق عبد الودود ولد عبد الله ود. أحمد جمال ولد الحسن، دار نجيبويه للبرمجة والدراسات والطباعة والنشر، القاهرة، 2010، الترجمة رقم 99، ص. 201.

[3] يعني هنا جهة الغرب بالنسبة لتنبكتو، وهو اصطلاح مازال أهل تلك المدينة وسكان أزواد بصفة عامة يطلقونه اصطلاحا على البلاد الموريتانية

[4] السعدي، مصدر سبق ذكره، ص.21، وص. 27 و ص ص. 35 – 36، و ص ص. 57 – 66.

[5] نفس المصدر، ص. 169.

[6] يحق للمهتمين بهذا الموضوع التساؤل عن السبب الذي أدى بهذه العائلات العلمية الموريتانية وغيرها ممن هاجر من الموريتانيين إلى تنبكتو وما جاورها من بلاد السودان خلال تلك الفترات وأن لا يتركوا أثرا علميا ذي بال في بلادهم، بينما يؤسسوا لنهضة علمية وفكرية في "بلاد مهجرهم"، ونعتقد أن الظروف الاقتصادية والسياسية في موريتانيا خلال تلك المرحلة من التاريخ كانت غير مشجعة على التفرغ للتعليم والتأليف، إذ من المحتمل أن يكون تحول الطرق التجارية

وقد ألف بعض علماء تلك المدرسة كتبا خصصها لتاريخ منطقة غرب إفريقيا تضمنت بغض المعلومات حول تاريخ موريتانيا الوسيط والحديث، من أشهرها وأكثرها ارتباطا بموضوعنا، كتابات محمود كعت[1] وعبد الرحمن السعدي[2]، خاصة في كتابيهما تاريخ الفتاش للأول وتاريخ السودان للثاني، ومع أن كل واحد منها قد أسهب في الحديث عن أوضاع المنطقة خلال عصره، فإنهما لم يهملا الروايات الشفوية التي كانت متداولة وقتئذ بين الشعوب الصحراوية والسودانية والمتعلقة بالعصور السابقة لهما، خاصة ما يتعلق منها بنشأة وسقوط غانة، فقد ذكرا أهم ملوكها الأوائل وما كانوا عليه من العظمة والثروة، ودور المراكز الحضرية الثقافية بموريتانيا في نشر الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، وقد نشر هوداس هذين الكتابين مع ترجمتها إلى اللغة الفرنسية، ولا شك أن هنالك مصادر سودانية أخرى أكثر ارتباطا بالموضوع لم نتمكن من الحصول عليها، ربما لأنها ما زالت تقبع في المكتبات الخصوصية داخل الأرياف التي يتعذر الوصول إليها في غرب إفريقيا.

أما المصادر المحلية المكتوبة في موريتانيا فإنه لا يمكننا حتى الآن تقييمها بصفة شاملة، لأنها ما زالت بحاجة لعملية مسح أولية تمكن الباحثين من التعرف على ما يمكن الوصول إليه منها، فعلى الرغم من الجهود الطيبة التي قام بها المعهد الموريتاني للبحث العلمي في موريتانيا ومعهد أحمد بابا في تنبكتو بمالي في هذا الصدد، فإن أغلبية المكتبات الأهلية مازالت بعيدة عن أيدي الباحثين، ولا يعرف حتى بعض القائمين عليها أي شيء عن محتوياتها، فهي بالنسبة لمعظم ملاكها إرث مقدس ورثوه عن أجدادهم ينبغي أن لا يطلع عليه أحد وأن لا يكون في متناول الناس حتى لا يضيع أو يتلف.

وعلى كل حال فإن ما هو متوفر منها لا يوجد من بينه مؤلف كتب قبل القرن 9هـ/16م أما ما يتعلق منها بالروايات المحلية، فإن أقدمه - حسب علمنا -

---

التي كانت القوافل ترتادها إلى الشرق وغياب سلطة سياسية مركزية توفر الأمن وتضع حدا لغارات السلب والنهب قد أدى إلى تراجع حاد لدخول سكان مدن القوافل، فارغمتهم تلك الوضعية على الاكتفاء بتدريس ما هو ضروري من علوم الدين وهجرة من توفرت له الفرصة إلى أماكن أحسن ظروفا، ومن بينهم من توجهوا إلى تنبكتو التي لم تكن في ذلك العهد غريبة عليهم إذ هي جزء من المجال الصحراوي المسوفي، فعاشوا فيها حياة مستقرة وآمنة ولقوا اهتماما من حكامها وأهلها وفر لهم ما يكفيهم عن التفكير في مشاغل الحياة اليومية، فتهيأت لهم بذلك ظروف التفرغ للتعليم والتعلم والتأليف في هذا الوسط الجديد.

[1] القاضي ألفغ محمود بن الحاج المتوكل كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار، نشر هوداس وتلميذه دي لافوس، باريس، 1981، ص. 42.

[2] عبد الرحمن السعدي، مصدر سبق ذكره، ص ص. 8 – 9 و ص ص. 20 – 22.

دون خلال القرن 11هـ/18م، وإن كان تصنيفها قد عرف تزايدا تدريجيا خلال القرن 19م وبلغ أوجه في النصف الأول من القرن 20م، وهي في معظمها تتحدث عن ثلاثة محاور رئيسية:

ـ أولها هو أنساب القبائل، حيث يبذل كل مؤلف جهدا كبيرا من أجل إلحاق كل مجموعة قبلية بنسب عربي - في الغالب - حميري أو قرشي، في حين يتم إرجاع بعض القبائل الصغيرة التي لا شوكة لها إلى انساب أخرى مختلفة.

ـ ويتعلق المحور الثاني بانتشار الإسلام في موريتانيا وغرب إفريقيا، وهي في الغالب ترجع فضل ذلك إلى شخصيتين تفصل بين فترتيهما عدة قرون، أحدهما هو عقبة بن نافع الفهري والآخر هو أبوبكر بن عمر اللمتوني.

ـ أما المحور الثالث والأخير فيتعلق بالسلطة السياسية في البلاد وتكرسه تلك المصادر للدولة اللمتونية الأولى ثم الدولة المرابطية والإمارات الحسانية.

وأهم ما تضيفه المصادر المحلية الموريتانية من معلومات إلى ما هو معروف في المصادر العربية الوسيطة هي تلك المتعلقة بتاريخ البلاد خلال المرحلة التي تلت عودة الأمير أبي بكر بن عمر الأخيرة من المغرب وجهاده في بلاد السودان، ثم المرحلة التي تلت وفاته، وهما مرحلتان صمتت عنهما المصادر العربية الوسيطة التي كرست اهتمامها خلال هذه الفترة للجزء الشمالي من دولة المرابطين في المغرب والأندلس، وهذا النوع من المصادر هو - فيما يبدو- عبارة عن الروايات الشفوية التي كانت متداولة في موريتانيا حتى عهد تدوينها، وهي الروايات التي يعتقد الأستاذ عبد الله العروي[1] أنها غذت بعض المصادر العربية الوسيطة مثل ابن عذارى وصاحب الحلل الموشية وغيرهما فيما كتبوه عن بدايات الحركة المرابطية في الصحراء وحروب أبي بكر بن عمر في بلاد السودان، وهي - حسبه - مليئة بالخرافات.

وعلى العكس من المصادر العربية الوسيطة، فإن هذه الروايات لم تهتم بتوسع المرابطين نحو الشمال كما أنها لم تول اهتماما لقادتهم الأوائل أمثال يحيى بن إبراهيم الكدالي ويحيى بن عمر اللمتوني، ولا حتى عبد الله بن ياسين، وإنما ركزت على الدور الذي لعبه أبوبكر بن عمر وتعتبره الشخصية المركزية في الدولة المرابطية، في حين تظهر الفقيه أبي بكر محمد بن الحسن المرادي الحضرمي كزعيم روحي للمرابطين من دون منازع، ولا تكاد تعطي لعبد الله بن ياسين أي دور، بل إنها أكثر اهتماما بشخصيات علمية عربية

[1] عبد الله العروي: مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، د. ت، ج2، ص 118

أخرى تورد أنها جاءت صحبة الأمير أبي بكر بن عمر و المرادي، وأنها لعبت دورا ثقافيا كبيرا في المنطقة[1].

ومع أننا لا ننفي عن هذه الروايات الطابع الأسطوري الذي وصفها به البعض، إذ لا يمكن أن نخرجها عن إطارها العربي الإسلامي، فمعظم الكتابات العربية التي تنحو منحاها لا يمكن التسليم بكل ما أوردته بمجرد أن يدونه أحد الكتاب المشهورين من أمثال المسعودي والإدريسي و ابن بطوطة والوزان وغيرهم، فإننا نعتقد أن جمع هذه المصادر المحلية ودراستها ووضع خطة منهجية للتعامل معها، من الأمور التي قد تفيد الباحثين في تطوير معارفهم حول المرابطين، بل وحتى تاريخ صحراء الملثمين بشكل عام وموريتانيا منها بصفة خاصة خلال الفترة ما بين أواخر القرن 5هـ/11م ونهاية القرن 13هـ/19م.

ومن بين هذه المصادر المحلية على سبيل المثال لا الحصر كتابات البدالي[2] وكتاب آخر غير معنون توجد منه نسخة في المعهد الموريتاني للبحث العلمي منسوبة خطأ لسيدي أحمد بن حبت[3] وهي في الحقيقة لسيدي محمد بن حبت (ت.1288هـ/1869م)، وقد تحدث فيه عن مجمل سكان غرب الصحراء الكبرى خلال العصر الوسيط بما في ذلك موريتانيا، فخاض في أنسابهم وعرض لانتشار الإسلام بينهم، كما تحدث عن دولة المرابطين، وكذلك كتاب "الدولة اللمتونية" لمحمد امبارك اللمتوني (ت. سنة1291هـ/1874م)، وهو عبارة عن أرجوزة تتكون من 265 بيتا، تعرض فيها المؤلف لتاريخ الدولة اللمتونية قبل وبعد قيام دولة المرابطين، فبدأ بعهد التبابعة الذين لا يشك في أنهم أسلاف أمراء لمتونة، ثم تعرض لتاريخ الدولة المرابطية، وتوقف بشكل خاص عند مرحلة قيادة أبي بكر بن عمر اللمتوني للجناح الجنوبي لهذه الدولة مركزا على فتوحاته في موريتانيا وبلاد السودان إلى أن استشهد، وتحدث عن سكان البلاد وأنسابهم وأمراء المرابطين بعد أبي بكر، ويستشف من خلال ما أورده أن الدولة المرابطية استمرت قائمة حتى دخول الاستعمار إلى البلاد، وإن كانت الهجرات الحسانية قد ظلت تحد من نفوذها باطراد إلى أن أصبحت

---

[1] ددود، مرجع سبق ذكره، ص ص 41-42.

[2] الشيخ محمد بن ساعيد البدالي: شيم الزوايا، أمر الولي ناصر الدين، رسالة النصيحة: نصوص من التاريخ الموريتاني، تقديم وتحقيق محمدن بن باباه، بيت الحكمة، قرطاج، 1990، ص ص 137 – 138.

[3] سيدي محمد بن حبت: تأليف بلا عنوان، يذكر في بدايته القبائل التي خرجت من مراكش إلى بلاد التكرور، مخطوط محفوظ بقسم المخطوطات في المعهد الموريتاني للبحث العلمي، تحت الرقم 2766.

مقتصرة على المنطقة التي كان يشملها نفوذ إمارة إيدوعيش بتكانت[1]، وتشاركه معظم المصادر المحلية في أن أمراء إيدوعيش ينحدرون من نسل يحيى بن عمر اللمتوني، الأمير الأول لدولة المرابطين.

وتحتوي كتابات الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي، خاصة الرسالة الغلاوية وكتاب الطرائف والتلائد[2] على معلومات هامة تخص سكان المنطقة وتاريخ انتشار الإسلام بينهم، وأصول التقسيم الاجتماعي عندهم، ومعلومات حول بعض المراكز الحضرية الصحراوية، وغير ذلك، ويضيق المقام هنا عن تتبع كل ما هو متوفر من هذا النوع من المصادر، لأن ذلك يتطلب دراسة مستقلة.

وفضلا عن المصادر العربية الوسيطة، والمصادر المحلية الصحراوية والسودانية، فإن استغلال نتائج البحوث الأثرية التي قيم بها في موريتانيا والتي استهدفت موقعين لعبا دورا موجها في تاريخ موريتانيا الغرب الإسلامي عموما وأجزاء هامة من إفريقيا جنوب الصحراء خلال الجزء الأكبر من العصر الوسيط يضيف إلى الصنفين السالفي الذكر نوعا آخر من مصادر تاريخ البلاد خلال الفترة الوسيطة لا يقل أهمية عنهما.

3- نتائج البحوث الأثرية:

تكتسي البحوث الأثرية أهمية متميزة بالنسبة لتاريخ إفريقيا، خاصة المناطق التي تشكو من ندرة المصادر المكتوبة، وهذه البحوث لا تهم العصور الموغلة في القدم من تاريخ القارة، وإنما العصور الوسيطة وحتى الحديثة، وما زالت مواقع المدن التي لعبت دورا كبيرا في تاريخ المغرب الإسلامي، لم تحظ بحملات البحث الأثري حتى يتمكن الباحثون من معرفة بعض القضايا التي أهملها الكتاب خلال العصر الوسيط، ونذكر من بين تلك المواقع سجلماسة[3] واغمات ونول لمطة وغيرها.

---

[1] محمد امبارك اللمتوني: نظم في الدولة اللمتونية، مخطوط محفوظ بقسم المخطوطات في المعهد الموريتاني للبحث العلمي، تحت الرقم 2338 ر. ت.

[2] الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي:

- الرسالة الغلاوية، مخطوط محفوظ بقسم المخطوطات في مكتبة المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية تحت الرقم 14.

- كتاب الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد للشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيدي المختار الكنتي، وهو مؤلف كبير مازالت معظم أجزائه مخطوطة، وقد تولى السيد عابدين بن باب أحمد بن حم الأمين تحقيق مقدمته في جزأين نشرهما المعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، د. ت.

[3] أجريت أبحاث أثرية استطلاعية محدودة في هذا الموقع نفذتها فرق مغربية وإيطالية وأمريكية، وما زالت آمال الباحثين معلقة على انجاز بحث وحفريات تتناسب مع القيمة التاريخية لسجلماسة التي يهم تاريخها مناطق شاسعة من العالم الإسلامي والمتوسطي، راجع عن الحملات الأثرية الاستطلاعية حول هذا الموقع: ذ. لحسن تاوشيخت: **عمران سجلماسة**، دراسة تاريخية وأثرية، 2ج،

أما في موريتانيا وما يجاورها من بلاد السودان، فإن الإمكانيات الاقتصادية التي تتطلبها عمليات الحفر وآليات البحث الأثري ذات التكلفة الباهظة، تقف حجر عثرة أمام مساهمة هذا النوع من مصادر المعرفة التاريخية في تسليط الضوء على هذه المرحلة من تاريخ المنطقة، وأهم ما قيم به في هذا المجال الحفريات الجزئية التي أنجزت في موقعين هامين يوجدان اليوم في أراضي موريتانيا، مع أن إشعاعهما خلال العصر الوسيط تجاوزها ليشمل معظم مناطق المغرب الإسلامي وغرب إفريقيا، أحدهما هو موقع كونبي صالح في ولاية الحوض الشرقي، ومن شبه المؤكد أنه يحتضن أطلال عاصمة إمبراطورية غانة المشهورة، أما الموقع الثاني فهو تغداوست في منطقة النوداش الواقعة في ولاية الحوض الغربي في موريتانيا أيضا، ويعتقد أن به أطلال مدينة أودغست ذائعة الصيت.

ولقد عرف الموقع الأول أربع حملات حفر، أولاها نفذت من طرف بونيل دي ميزيير (A.Bonnel de Mézières)، الذي اهتدى إلى هذا الموقع عن طريق الاستعانة بالتقاليد المحلية، حيث تردد على منطقة الحوض بحثا عن أطلال عاصمة غانة ما بين سنتي 1913و1914م، فدله سكان مدينة ولاته عليه، وباشر الحفر فيه خلال السنة الأخيرة، ثم واصل العمل بعده لازارتيغ (LAZARTIGUES)، سنة 1939، ثم تلت ذلك الحفريات التي أجراها توماسي (P. THOMASSEY) خلال سنتي 1949- 1950، وكذلك الأعمال التي قام بها الفريق الذي قاده كل من سزوموسكي(G. SZUMOWSki) وريمون موني(R. MAUNY) خلال سنة1951، وقد أكدت نتائج البحوث التي أجريت في هذا الموقع على أن أهميته الأثرية لا تضاهيها أهمية أي موقع آخر في الغرب الإفريقي، كما أكد الباحثون على ضرورة الاستعانة بالوصف الذي وفرته المصادر العربية الوسيطة والروايات المحلية المتداولة بين الأهالي حول تاريخ المنطقة كموجه للبحث الأثري بها، وذلك تزكية منهم للاتجاه الذي يسعى أصحابه إلى كتابة تاريخ هذه المنطقة انطلاقا من ضرورة التكامل بين مختلف أنواع مصادر تاريخها ، مكتوبة كانت أو أثرية أو شفوية.

وتبقى الحفريات التي أقيمت في هذا الموقع جزئية حتى الآن، ولم تشمل سوى جزء يسير من القسم الإسلامي من المدينة، خاصة مسجد ضخم يعتقد أنه أكبر مساجدها في العصر الوسيط، وقد ذكر البكري أن عدد مساجد عاصمة غانة في عهده هو 11مسجدا أحدها كان سكان المدينة يجمعون فيه[1]،

منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، ط1، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2008، ج1، ص ص. 182 — 286.

[1] البكري، مصدر سبق ذكره، ص. 175.

كما كشفت الحفريات عن بعض المتاجر والمساكن، وقد نشرت نتائج هذه الأبحاث، في نشرة المعهد الأساسي لإفريقيا السوداء (BIFAN) بدكار، وكذلك في الكتب التي أنجزها ريمون موني[1] الذي شارك شخصيا في إنجاز تلك الحفريات.

أما الموقع الثاني، فمن المرجح لدى الباحثين أنه أطلال مدينة أودغست المشهورة في الكتابات العربية الوسيطة بوصفها من أهم المدن المشاركة في التجارة عبر الصحراء وباعتبارها عاصمة للملثمين في غرب الصحراء الكبرى (موريتانيا) حتى نهاية القرن 4هـ/10م[2]، وقد بدأ الحفر به في أواخر سنة 1960 على يد فريق فرنسي مشكل من جان دفيس (J. DEVISSE) وسرج روبير (S. ROBERT) وريمون موني (R. MAUNY) ثم التحقت بهم السيدة دنيس روبير شالكس (D. ROBERT-CHALEIX) سنة 1962، وظل الباحثون في مجال الآيركولوجيا الصحراوية والإفريقية من الفرنسيين والافارقة يلتحقون بهم من وقت لآخر ، وقد نشر المعهد الموريتاني للبحث العلمي أربعة أعداد من سلسلة "تغداوست"[3] التي خصصت لنتائج البحث الأثري في هذا الموقع.

وقد خصص فريق البحث الجزء الأول من هذه السلسلة وعنوانه (تغدأوست)، بحوث حول أودغست)، لنشر النتائج الأولية للحفريات التي قام بها في ذلك الموقع، كما شمل بحوثا أخرى قيمة لها علاقة بتاريخ أودغست مثل الدراسة التي أجرتها سيزان دافو(S.DAVEAU) حول مراحل الطريق الذي كان يربط سجلماسة بأودغست حسب البكري، وحاولت فيها التعرف على المناطق التي تغيرت أسماؤها، وتدوين الأسماء التي تعرف بها في الوقت الحالي إلى جانب أسمائها خلال العصر الوسيط، كما يضم هذا الجزء بحثا هاما كتبه السيد محمد ولد مولود ولد داداه (الشنافي)، ويتعلق ببعض المجموعات التي يعتقد أنها منحدرة من السكان الأصليين لأودغست، والروايات الشفوية المتداولة بينهم حول أسباب خراب مدينتهم الأصلية (أودغست)، وهجراتهم منها ومراحل تلك الهجرات.

---

[1] MAUNY (Raymond):

- Tableau géographique de l'Ouest Africain au moyen – âge, d'après les Sources écrites, la Tradition et l'Archéologie, mémoire de l'IFAN, no 61, Dakar, 1961.
- Les siècles obscurs de l'Afrique noire, Fayard, Paris, 1970.

[2] ابن حوقل، مصدر سبق ذكره، ص. والبكري، مصدر سبق ذكره، ص ص. 97 – 98.

[3] J. DEVISSE, S. ROBERT et D. ROBERT,**TEGDAOUST I**, Recherches sur Awdaghost, A.M.G, Paris, 1970.

أما الجزء الثاني من سلسلة "تغداوست"، فقد خصص لنشر دراسة حول نتائج حفريات قيم بها في "حي صناعي" بموقع تغداوست، أنجزتها السيدة اكلوديت فاناكير[1](C.VANACKER) تحدثت فيها عن ذلك الحي، وعن الظروف التي كان سكانه يزاولون فيها أنشطتهم من خلال مخلفات ورشاتهم، كما رسمت تصاميم منازلهم فيه والأفران التي كانوا يستخدمونها والقوالب الطينية لبعض مصنوعاتهم، والمواد المعدنية التي كانوا يعتمدون عليها، ودرست مكونات تلك المواد من خلال بقاياها في الأفران، كما حاولت التعرف على المنطقة التي صدرت تلك المواد إلى أودغست من خلال دراسة مكوناتها ومقارنتها بمكونات شبيهاتها في مناطق الإنتاج ذات الصلات التجارية خلال تلك المرحلة من التاريخ بالمدينة المذكورة، فضلا عن محاولتها التمييز بين المواد المصنوعة محليا وتلك المستوردة من شمال إفريقيا أو من مناطق أخرى.

وقد خصص الجزء الثالث[2] من هذه السلسلة لنشر نتائج حملات الحفر في الموقع خلال الفترة ما بين 1960- 1965، وهذا هو أكبر أجزاء السلسلة حجما، حيث يضم 569 صفحة تتناول جوانب مختلفة من مظاهر الحياة التي كانت سائدة في أودغست خلال مراحل تطورها انطلاقا من نتائج تلك البحوث.

أما الجزء الرابع[3] فقد كرسه الباحث جان ابولي (J. POLET) لدراسة المظاهر الحضرية في مدينة أودغست بما فيها فن الطراز المعماري وطرق استغلال المجال المبني، وذلك من خلال الحفريات التي أجريت في بعض أحياء موقع تغداوست الأثري، وينتظر ظهور الجزئين المتبقيين من السلسلة إذا توفر التمويل اللازم لطباعتهما، ويتعلق واحد منهما بالتطور التاريخي لحي صناعي بتغداوست لكاتبه برنار سيزوه (B. SAISON) بينما يتعلق الآخر بتطور الملكية العقارية خلال العصر الوسيط بتغداوست لدنيس روبير (D.-C. ROBERT).

وقد أفادتنا هذه الأعمال بمعلومات أصيلة من خلال الموجودات المادية التي تبين نمط الحياة الذي كان سائدا بين سكان تلك المدن وفن العمارة

---

[1] C. VANACKER, **TEGDAOUST II**, Recherche sur Awdaghost, Fuille d'un quartier artisanal, Mémoire de l'IMRS, no2, Imprimerie Sopizet, Thonon, 1979.

[2] ROBERT – CHARLEIX (Denise et autres), **TEGDAOUST III**, Recherches sur Awdaghost, Campagne 1960 – 1965, Enquêtes générales, Editions, Recherche sur les Civilisations, Paris, 1983.

[3] J. POLET, **TEGDAOUST IV**, Fouille d'un quartier de TEGDAOUST, Mauritanie Orientale (Urbanisation, Architecture et Utilisation de l'espace construit), Editions, Recherche sur les Civilisations, Paris, 1985.

الصحراوية والسودانية، وعلاقات تلك المناطق بأجزاء مختلفة من العالم المعروف وقتئذ، وفي مقدمتها منطقة المغرب الإسلامي التي برهنت نتائج تلك البحوث على عمقها من خلال التأثير المغربي على مختلف أوجه الحياة في الصحراء وغرب إفريقيا، خاصة الحياة الحضرية، إلى درجة أن بعض الدارسين وصفوا المدن السالفة الذكر بأنها مدن شمال إفريقية في وسط صحراوي وسوداني[1]، وذلك بفنها المعماري ونمط الحياة الذي كان سائدا بين سكانها الذين كان التجار المغاربة والأندلسيون يشكلون نسبة هامة من بينهم.

ويشجع ما أضافته نتائج البحوث الأثرية إلى معلوماتنا حول تاريخ موريتانيا خلال العصر الوسيط على مواصلة تلك البحوث لتشمل أجزاء هامة من المواقع التي سبق أن أجريت بها حفريات جزئية، فضلا عن المواقع الأخرى التي لم تستهدفها أصلا، كآزوكي التي كانت عاصمة للدولة المرابطية في الصحراء والتي أجريت بها حفريات أولية[2] كشفت عن حائط الحصن الذي ذكره البكري وأشار إلى وجود حوالي عشرين ألف نخلة حوله[3]، وكأطلال مدينة آبير التي يعتقد أنها أسست في منتصف القرن2 هـ/8م، وأن سكانها انتقلوا تحت ضغط زحف الرمال خلال القرن 7هـ/13م إلى موقع مدينة شنقيط[4] التي لا تبعد عنها سوى حوالي ثلاث كيلومترات، ومازال السكان هنالك يشيرون بالبنان إلى الكثيب الذي يعتقدون أنه يغطي أطلال تلك المدينة، وكذلك مدينة تينيكي في نفس المنطقة، وأوليل وغيرها من المدن المعروفة.

---

[1] TEGDAOUST III, op cit, P. 162 et TEGDAOUST IV, op cit, P. 233.

[2] يراجع حول هذا الموضوع:

- R. MAUNY: "Notes d'histoire et d'archéologie sur Azougui, Chingitti et Ouadane", BIFAN, XVII, série B, 1 – 2, 1955, PP. 142 – 162.
- Bernard SAISON: " Azugi et les Almoravides: bilan et perspectives archéologiques", in Actes du colloque international sur le mouvement almoravide, Cahier des sources de l'histoire de la Mauritanie (MASADIR), cahier no 2, Nouakchott, 1999, pp. 91 – 98.
- Dnise ROBERT – CHALEIX: " Le site d'Azugi: présentation et travaux préliminaires à la fouille", in Actes du colloque international sur le mouvement almoravide, op.cit., pp. 99 – 111.
- Namy dit El Ghassem ould Mouhamed khaber: "Azougui, exemple d'une archéologie almoravide", in Actes du colloque international sur le mouvement almoravide, op.cit., pp. 113 – 119.

[3] البكري، مصدر سبق ذكره، ص. 167.

[4] أحمد بن الأمين الشنقيطي: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الخانجي ، ط5، القاهرة 2002، ص ص. 422 — 426.

وفي الوقت نفسه أشارت المصادر العربية الوسيطة إلى وجود مدن أخرى هامة في الصحراء خلال العصر الوسيط لا نعرف اليوم شيئا حتى عن مواقعها بشكل محدد، مما يستدعي عملية مسح أثري للمواقع الموريتانية ومحاولة التعرف عليها، ونذكر من بين تلك المدن على سبيل المثال لا الحصر، كوكدم وبانكلابين و تيماماناوت وارتنني ومدوكن[1] الخ...

وبصفة عامة، فإن مصادر تاريخ موريتانيا بشكل عام وتاريخها الوسيط بشكل خاص قليلة من حيث الكم بالمقارنة مع ما هو متوفر لبعض المناطق التي تتالى فيها قيام دول وفرت الظروف المناسبة لكتابة وتراكم مادة مصدرية متعددة الأشكال ومتنوعة من حيث المضامين وتم حفظ معظمها حتى وصل إلى أيدي الباحثين المعاصرين، فنشروا بعضه بينما بقي البعض الآخر محفوظا في الأرشيفات ودور المخطوطات في ظروف مطمئنة عليه من التلف، وعلى الرغم من ذلك فإن ما هو متوفر من مصادر التاريخ الموريتاني يكفي لكتابة هذا التاريخ إذا ما وجدت الإرادة الصادقة لتحقيق ذلك الغرض، فالكفاءات المطلوبة متوفرة والمصادر على قلتها النسبية ثرية بالمعلومات ومتنوعة وحيادية، إذ أن كثيرا من المصادر العربية الوسيطة لهذا البلد تتميز بطابعها الوصفي الذي يهدف إلى رسم صورة للواقع كما هو، وقد تمت دراستها وتمييز مواطن الضعف النادرة فيها، أما نتائج البحث الأثري فإنها تعتمد على موجودات مادية خلفها الإنسان، ولا سبيل إلى تحيز تلك الآثار لمنطقة أو شعب أو مجموعة، وتبقى المصادر المحلية هي أكثر مصادر تاريخ البلاد الوسيطة حاجة إلى الغربلة والدراسة والنقد، وقد بدأ الباحثون منذ فترة تحقيقها وإخراجها إخراجا علميا يسهل استخدامها، وعندما تكتمل دراستها واستكمال ما هو ضروري من حفريات للمواقع الأثرية، فإن مشكلة كتابة التاريخ الموريتاني الوسيط لن تكون مشكلة نقص المصادر، إذ أن التكامل بين هذه الأصناف الثلاثة من المصادر جدير بتذليل معظم المصاعب.

---

[1] البكري، مصدر سبق ذكره، ص ص 164 - 167. ابن أبي زرع، مصدر سبق ذكره، ص.121، و زكريا بن محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1969، ص. 19، و ص. 57 - 58.